

فلسفة التربية عند جون ديوي

John Dewey Philosophie de l' éducation shez

الأستاذة : شوب مريم

قسم الفلسفة

المدرسة العليا للأساتذة "بوزريعة "

ملخص:

يهدف هذا المقال إلى إلقاء الضوء على فلسفة التربية عند الفيلسوف والمربي الأمريكي البرجماتي جون ديوي بعد أن اتضحت معالم فلسفته التربوية في كل انحاء العالم بصفة عامة والولايات المتحدة الامريكية بصفة خاصة ، ويتطلب الأمر التوقف عند المفاهيم الأساسية التي تشكل هيكل الموضوع بتحديد مفهوم فلسفة التربية عند جون ديوي، ثم تحديد العلاقة بين الفلسفة والتربية عنده ، ليتم التعرض بعد ذلك لإشكالية مكانة فكر جون ديوي التربوي، ويتم التعرض بعد ذلك إلى الأسس التربوية التي يعتمد عليها ديوي في تأسيس منظومته التربوية ، لنخلص إلى واقع المدرسة وأفاقها ، و التوجيه الاجتماعي للتربية عند ديوي، ليختم المقال بمحاولة ذكر أهم الإعتراضات التي وجهت له .

الكلمات المفتاحية :

فلسفة التربية، المدرسة، المجتمع، الخبرة.

Résumé:

Le présent article a pour but d'éclairer la philosophie de l'éducation shez John Dewey, la philosophie et pédagogue pragmatique amirécain, après que sa philosophie pédagogique ait été comme à travers le monde en générale, et aut États-Unis, en particulier. Cela escige alors que l'on p'arr ête sur les concepts fondamentaux structurent notre sujet en délimitent aussi bien l'idée De la philosophie pédagogique shez John Dewey que la relation entre la philosophie et l'éducation shez lui. Ensuite, nous aborderons la

problématique de la place qu'occupe sa pensée pédagogique en passant par les principes pédagogique sur les quels il s'appuie pour Bâtir son système éducatif. Enfin, nous évoquerons la réalité et les perspectives de l'école ainsi que l'orientation sociale de l'éducation chez John Dewey. Et pour clôturer notre article, nous évoquerons les objections critiques qui lui ont été adressées.

Mot-clé:

Philosophie de l'éducation, l'école, la Société, L'expérience.

مقدمة :

لقد شهد تاريخ الفكر الفلسفي عبر التاريخ العديد من المذاهب، والفلسفات المتعددة التي كان لها الأثر البالغ في تجسيد الكثير من النظريات، والأطروحات التي كانت قائمة على أساس الصراع بين الأفكار، ودحض الحجة بالحجة والتي لا تزال إلى يومنا هذا محل نقاش واختلاف بين الفلاسفة والمفكرين، لكن السؤال المطروح هنا ما هو الموضوع الذي شغل بال وتفكير الكثير من المربين والفلاسفة؟ إنه موضوع التربية الذي شكل محورا رئيسيا من محاور التفكير الإنساني على اعتبار التربية ظاهرة اجتماعية للحضارة ومؤشرا عاما على رقيها، و لقد تعارضت الآراء حول ماهيتها وطبيعة القوانين التي تحكمها هذا من جهة، ومن جهة أخرى عندما نقول التربية يقع في ذهننا مباشرة ذلك الإنسان الكل المركب المعقد الذي يتأثر بيئته عن طريق التغيرات التي تحدث في سلوكه ونمط حياته، وإذا كانت التربية بهذه الأهمية الكبرى، فإنها إذن الوسيلة الوحيدة التي تتطور بها المجتمعات، وتعمل على جعل أي فرد من أفرادها قادرا على مواجهة تحديات العصر، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا من هو هذا الفيلسوف الذي ذاعت شهرته في المجال الفلسفي بصفة عامة والتربوي بصفة خاصة؟ وأخذ حيزا كبيرا مقارنة مع شهرته كفيلسوف؟، إنه الفيلسوف الأمريكي البرغماتي التربوي جون ديوي " 1859-1952م " صاحب النظرية التربوية الثورية التي لا تكاد منظومة تربوية تخلو من آثاره .

إن الفحص الدقيق لتاريخ الفلسفة يكشف عن حقيقة هامة وهي أن الفلسفة هي روح التربية، ومهما كان نوعها فهي تعكس واقعها المعاش والتفكير الفلسفي باعتباره تأملا فكريا شاملا يهدف إلى فهم الواقع وتفسيره مثلما يسعى إلى تغييره بهدف الارتقاء بالطبيعة الإنسانية، ولا يكون ذلك ممكنا إلا برؤية تربوية جادة

فالمتتبع لمراحل تاريخ الفكر الفلسفي من حقبة اليونانية إلى الفلسفة المعاصرة ،
مرورا بالمذاهب الفلسفية الوسيطة الإسلامية والمسيحية وما تلاها من اتجاهات
فلسفية حديثة أبرزت بشكل خاص تماشي الأفكار التربوية مع الأوضاع الفكرية
والسياسية والعلمية بشكل أساسي، ومن تلك الحقيقة يتضح أن كل نظرة في
التربية هي جزء من النظرية الفلسفية لكل فيلسوف، لتتأكد لكل متمعن في تاريخ
الفكر البشري لزومية تلك العلاقة بين الفلسفة والتربية.

من هنا يمكننا أن نتساءل: ألم يبين أفلاطون مدينته الفاضلة التي تعكس الواقع الذي
يعيشه بدعوته إلى إعداد الناس بما يحافظ على التفاوت الطبقي بين العبد والسيد ؟
ألا تتجلى في دعوته الفلسفية هذه نظريته التربوية التي لا تخرج عن الطابع العام
لفلسفته المثالية؟ ألم يسع رجال الدين من أمثال أوغسطين والغزالي إلى تربية
الناس على مكارم الأخلاق ؟ أليست هذه النظرة التربوية من نتاج الطابع العام
للفلسفة في العصر الوسيط؟ ألم تعكس فلسفة كانط رؤيته التربوية حينما يدعو
إلى بناء قواعد أخلاقية عامة يلتزم بها المربون والمتعلمون ؟ ألم تكن فلسفة سارتر
-التي تعكس معاناة الإنسان من القلق والتمزق الذي خلفته الحرب العالمية- دعوة
لبناء شخصية واعية بحريتها من خلال المواقف التي تحياها وتعانيها؟ فكذلك الأمر
مع الفلسفة البراغماتية فهي تعبر عن وضعية الإنسان الأمريكي الذي يعيش دوامة
الحضارة المعاصرة وهي روح التربية التقدمية.

لهذا، انطلق ديوي من الواقع الأمريكي وحاول تقديم إصلاح أعمق في شتى
مجالاته ذلك أن مشروع أي مجتمع والصورة المراد تجسيدها له وفيه تستوجب
التأكيد على إصلاح أوضاعه الاجتماعية لضمان استمراريته وتطور أفرادها، ولما
أدرك أن ذلك لا يتأتى إلا بالتربية راح يبحث لها عن قاعدة فلسفية تخرجها من
نمطها التقليدي وتأخذ بها إلى ما يواكب التحول الذي شهدته ولا زالت تشهده الحياة
في مختلف مناحيها، ذلك ما يحتمه الواقع الأمريكي الذي عرف تحولا سياسيا
 واجتماعيا مع بروز الثورة الأمريكية وظهور الساسة المفكرين من أمثال توماس
جيفرسون الذي آمن بأفكار الثورات التنويرية في أوروبا القائمة على الحرية
والمساواة ودعا إلى تغيير المجتمع الأمريكي وفق تلك القيم، وآمن ديوي بما ذهب
إليه جيفرسون، وأفتنح بضرورة وضع فلسفة فعالة لبناء منظومة تربوية جديدة
تصلح المجتمع، وتتشع بين أفرادها مبادئ الديمقراطية والعدل والمساواة والحرية.

وتبعاً لذلك فالسؤال الذي يفرض نفسه ماهو مفهوم فلسفة التربية عند جون ديوي؟.

مفهوم فلسفة التربية عند جون ديوي :

يقر ديوي في كتابه "التربية والديمقراطية" أنه عرض فلسفة التربية في فصوله الأولى دون أن يقدم لها تعريفاً واضحاً، الأمر الذي جعله يعترف بأن البحث فيها يتطلب الوقوف على المسائل الفلسفية المرتبطة بنظريات المعرفة، و الأخلاق المتضمنة في مختلف المثل التربوية العليا.¹

ويبرز مفهوم فلسفة التربية عنده على أنها استخدام الطريقة الفلسفية في التفكير لمناقشة المسائل التربوية حيث اعتبر جون ديوي أن الفلسفة هي النظرية العامة للتربية² ، وهي من جهة أخرى النشاط المنظم الذي يتخذ من الفلسفة وسيلة لتحديد منطلقات وتوضيح الأهداف التي يود تحقيقها، وفيلسوف التربية هو أيضاً "ذلك المهندس الذي يخطط ويرسم مخططاته انطلاقاً من حاجات المجتمع ، ذلك أن إدراك حلول المشكلات الواقعية يختلف من شخص لآخر"³ ، أن هذا المفهوم يوجي لنا بعدم تفرقة، ولا تمييزه بين فلسفة التربية ونظرية التربية إذ يجعلهما وجهان لعملة واحدة وهو ما يفسر التداخل الذي وضعه بين التربية والفلسفة وما يؤكد ذلك قوله: "التربية كالفلسفة في صعوبة عزل أي مبحث من مباحثها ابتغاء البحث، والمناقشة"⁴.

وعلى هذا الأساس يمكننا إبراز مفهومه لفلسفة التربية من خلال تتبع العلاقة التي تربط الفلسفة بالتربية، ولهذا نبدأ في البحث عن هاته العلاقة .

يثبت التاريخ العلاقة الوثيقة بين الفلسفة والتربية حيث اعتمد رجال التربية على الفلسفة في تحديد ملامح نظرياتهم التربوية ومضامينها ومناهجها، فمثالية أفلاطون كان لها الأثر الواضح على فكره التربوي، كما تأثرت التربية عند روسو بفلسفته الطبيعية، وكذا الأمر بالنسبة لتأثير الفلسفة البراغماتية والأداتية على الفكر التربوي عند جون ديوي لقد كان أفلاطون أوضح الفلاسفة القدامى في التعبير عن العلاقة بين الفلسفة والتربية حيث أولى لها عناية خاصة في جمهوريته ، وربطها مباشرة بتوجهه الفلسفي⁵ ، فكان لهذا أثراً كبيراً على كل من جاء بعده بما

فهم جون ديوي الذي أقر بذلك بقوله: "إن الفلسفة الأوروبية عند الإثنيين قد نشأت في ظل الحاجة الملحة إلى حل القضايا التربوية."⁶

إلا أن الاختلاف في الرؤى الفلسفية بين الفلاسفة ينعكس وبصورة واضحة على النظريات التربوية، بدليل أن رجل التربية يأخذ من مجالات الفلسفة ما يساعده على تعليم الأطفال حيث يأخذ من القيم والمعرفة وغيرها بما ينمي قدرات الأفراد⁷، وأصر ديوي على توثيق الصلة بين الفلسفة والتربية على أن هاته الأخيرة هي الكفيلة باختبار صحة المبادئ الفلسفية وتساعد على إصلاح المجتمع وتغييره، وحمله على مسامرة الإيقاع المتسارع لظروف الحياة.⁸

حيث حصر قيمة الفلسفة في تحديدها للمشكلات واقتراحها لطرق معالجتها، لأن المذهب الفلسفي يسعى إلى إيجاد سبل التكيف الاجتماعي، ويعمل على تشخيص المشكلات التي تعترض الفرد في واقعه، ويبحث عن الحلول لها انطلاقاً من الواقع المتغير، أما إذا بقت في سياقها الفكري المجرد تخص الفلاسفة دون غيرهم، وتبتعد عن الواقع فإنها تصبح تشكل خطراً على الفكر والإنسان والمجتمع .

ويربط ديوي تماماً بين الفلسفة والتربية وهو يقول في هذا المعنى: "وفي الحق أن كل نظرية فلسفية لا تؤدي إلى تبديل في العمل التربوي لابد أن تكون مصطنعة ذلك بأن وجهة نظر التربية يعيننا على فهم المشاكل الفلسفية في منابها التي نشأت فيها، أي في مواطنها الطبيعية حيث يؤدي قبولها أو رفضها إلى تبديل في الناحية العملية في التربية"⁹.

من خلال دعوته إلى تقريب وتبدو معالم الترابط بين الفلسفة والتربية التي يسعى إليها الفلاسفة من الواقع حتى تعين الفرد على فهم مشاكله الاجتماعية، وتساعده على تجاوزها وتغذو من فورها هذا صوغاً صريحاً لمصالح الحياة المختلفة، وشرحاً لوجوه النظر والأساليب التي تكفل إيجاد التوازن المجرد بين هذه المصالح.¹⁰ ومن هنا يتبين لنا العلاقة الوطيدة بين النشاط الفلسفي النظري، والنشاط التربوي العملي .

فالترادف الذي وضعه بين الفلسفة والتربية مرده إلى اشتراكهما في وظيفة واحدة فكلاهما يقوم على نفس المبادئ الأخلاقية، ويحمل نفس الغايات الاجتماعية هذا الذي أثر على الكثير من فلاسفة التربية إلى درجة أن تفريقهم بين فلسفة التربية ونظرية التربية يكاد يختفي، فكثيراً ما يتم استعمالهما على أنهما كلمتان تؤديان

معنى واحدا، فلما اعتبر ديوي التربية عملية تكوين النزعات الفكرية والعاطفية في الإنسان تلقاء الطبيعة وأخيه الإنسان¹¹ ، أراد أن يشير إلى أن تحقيق تربية سليمة للفرد يقتضي تجسيد النظرية التربوية في الواقع تلك النظرية المتمثلة في الأفكار ذات الصلة بالحقائق وكذا واقع الحياة والتي تكون قابلة للتحقيق حتى تصبح أفكارا عملية، وإذا لم يتم ترجمة تلك النظرية في الواقع تبقى أفكارا مجردة لا طائل منها.

و صفوة القول أن هدف ديوي من ربط فلسفة التربية بواقع الحياة، وجعل من النظريات التربوية أدوات لحل المشكلات الواقعية هو أن يخرج التربية من طابعها الكلاسيكي الضيق إلى فضاء التقدم العلمي، وهذا ما يشير إلى توجهه البراغماتي وطبيعة منهجه الأداتي، وإذا كان جون ديوي من أشهر أعلام التربية الحديثة على المستوى العالمي، وارتبط اسمه بفلسفة التربية، فما هي مكانة فكره التربوي؟.

مكانة فكر جون ديوي التربوي :

حين منحت جامعة باريس الفيلسوف، والمربي الأمريكي جون ديوي درجة الدكتوراه التجريبية عام 1930م قالت عنه : " بأنه يمثل أعمق، وأكمل تعبير للعبقرية الأمريكية"¹²، يتجلى لنا من خلال هذا القول إن له أهمية و دور فعال في الحياة الفكرية والسياسية، والاجتماعية الأمريكية هذا من جهة، أما من جهة أخرى فقد عمل على تطوير، وتغيير المفاهيم الفكرية، والسياسية التي نقلها الشعب الأمريكي من العالم القديم.

ويقرن اسم جون ديوي عادة بالمذهب العملي أو البرغماتي أو مذهب الذرائع وهو المذهب الفلسفي الذي بدأه قبله بيرس، ووليام جيمس، لكن السؤال المطروح في ذهني الآن كيف كان ينظر هذا المذهب إلى الأشياء، والحوادث التي تحدث في العالم؟ هل هي متغيرة باستمرار أم أنها ثابتة ؟حقا هذا أمرا يثير التساؤل لأن في رأي البرغماتيين أن كل شيء يحدث إنما هو قائم على أساس التغيير، والتطور المستمر، وهذا ما يظهر لنا واضحا من خلال التطبيق العملي على أرض الواقع ، إذن يمكننا القول أن الفلسفة عند جون ديوي شيئا عمليا من صميم الحياة العملية، وليست نزهة عقلية يقوم بها الفيلسوف.

وقد وصف أحد الكتاب هذه النزهة عند ديوي بقوله : "وفي أسلوب قوي مقنع يرينا ديوي أن جميع المثاليين، والكثير من الواقعيين لا يزالون يقتفون آثار اليونان في

التفتيش عن يقين لا يتغير، ويعتبر أن الانتقال من البحث عن اليقين إلى قبول النظرة بعالم متغير هو أحد الأحداث الخطيرة في أحداث الحضارة الإنسانية.¹³ يتبين لنا من قوله هذا أن الفلسفة البرغماتية مرتبطة بالتغيير، والتحول والتجديد وهذه الفكرة كانت رد فعل قوية للقيم الثابتة التي كانت سائدة في أوروبا عندما كانت تحكمها الكنيسة المثالية.

يعد ديوي من أكبر رجال التربية، والتعليم في العصر المعاصر ، حيث يقول : " إذا رضينا بفهم التربية على أنها عملية تكوين النزعات الأساسية الفكرية، والعاطفية في الإنسان تلقاء الطبيعة وأخيه الإنسان، لم تخشى حينئذ تعريف الفلسفة بأنها النظرية العامة للتربية¹⁴ . إذ يرى البعض أن خير ما كتب في التربية في العصر القديمة كان للأفلاطون، وأن خير ما كتب في التربية في العصور الحديثة كان الديمقراطية والتربية لديوي، كما يرى البعض الآخر أن ديوي يشترك مع أفلاطون بأنه علمنا بأن الفلاسفة هم تربويون معلمون بالمهنة وأن من واجهم دراسة الإنسان وتعليمه.¹⁵ وهذا دليل واضح على مدى عمق تجربته التربوية ، وإذا كان اهتمام ديوي بالمدرسة لم يكن نظريا، وإنما تعداه إلى الناحية التطبيقية فما هي الأشياء التي يدعو إليها جون ديوي في عالم التربية والتعليم، والتي نرى صورة منها في كتاب المدرسة والمجتمع ؟

- لعل أول الأمور التي أهتم بها ديوي هي ربط المدرسة بالمجتمع ، لكن هل فكرة الربط هذه جديدة ؟، هذه الفكرة ليست جديدة، إلا أن جون ديوي أكد عليها من جديد وأكد على أن المدرسة جزء لا يتجزأ من المجتمع ، ولقد نظر إلى أن دور المدرسة في المجتمع هو النظر في الثقافة بمعناها الواسع ، أي بأدائها، وعلومها وفنونها، وعاتها ، ونواحيها المادية يري ديوي أيضا أن عملية التربية، والتعليم ليست عملية إعداد للمستقبل بل إنها عملية حياة معنى هذا الاهتمام بحاضر المتعلم، واعتبار ذلك محققا لأهداف التربية الحاضرة والمستقبل معا¹⁶ .

- كذلك إهتم ديوي بالعمل كعملية تربوية، ودعا إلى ضرورة العناية بالأعمال اليدوية في النهج المدرسي، ودعا أيضا إلى مبدأ الفاعلية في الحصول على الخبرة والتعلم، ولا يبدو الاهتمام بالنواحي العملية بالنسبة لمرب وفيلسوف براغماتي كجون ديوي بالأمر الغريب.¹⁷

فالتربية العملية بمختلف أشكالها هي التي ينبغي أن تكون لها الأسبقية في المنهج مع العلم بأن هذا الرأي طبق بأشكال عدة في المدارس، التي أخذت بتعاليم جون ديوي لكن ما هي أبر هذه الأشكال :

- رفع مكانة الموضوعات العملية، والنظر إليها على قدم المساواة مع الموضوعات النظرية التقليدية .

- فكرة الفعالية في التربية التي دعى إليها جون ديوي فقد تبلورت فيما يسمى بطريقة المشروع ، وخالصة هذه الطريقة أن دراستها تكون عملية تجريبية اختبارية .¹⁸

- إن هذه الطريقة في التعليم هي الأجدر، والأفضل بالنسبة لجون ديوي على طريقة الحفظ والتلقين التي تكون جاهزة في المناهج الدراسية .

- ربط جون ديوي بين التربية والديمقراطية ، ولعل عنوان كتابه التربوي الأول "الديمقراطية والتربية " خير ممثل لنزعتة هذه، والديمقراطية عنده: " هي أسلوب في الحياة وليست مجرد تطبيق سياسي لمفهوم قديم يرجع عهده إلى اليونان في العصور القديمة"¹⁹ ، هذا يعني أن المدرسة الديمقراطية يعيش فيها المتعلمون والمعلمون و العاملون الآخرون كلهم زملاء متعاونين لتحقيق هدف مشترك مثل المساواة بين الأفراد التكافل الاجتماعي، والعدالة والحرية في الاعتقاد .²⁰

السؤال المطروح هنا ماهي مميزات التفكير الناجح لدى ديوي ؟.

لم يكن مما يعني التربية التقليدية في قليل، أو في كثير أن تقيم عملية التربية على أساس من التفكير العلمي السليم"²¹ ، نحن أمام موقف يدفعنا إلى التساؤل التالي، إلى ماذا كانت توجه التربية التقليدية جهودها ؟ كانت توجهها لإقامة هذه العملية على أساس من التحفيظ والتسميع، و الفعل والتكرار ، والتقليد ، ومن جهة أخرى ما مدى تأثير هذه الطريقة التربوية على سلوك التلميذ ؟ أي بسؤال آخر هل كانت أثارها إيجابية أم سلبية ؟ بطبيعة الحال أدت إلى قتل روح الابتكار لدى التلاميذ وتحويلهم إلى نوع سئ من المواطنين ذلك النوع الذي لا يصلح إلا لكي يؤمر فيطاع أتعلمون لماذا هذا الأمر؟، لأنه يعيش وهو يفكر على فتات أفكار الآخريين، وهذا هو بالضبط ما يعيق عملية التقدم، ولقد تنبه جون ديوي إلى هذه الحقائق فاعتنى بأمر التفكير، وحاول إقامته على أسس من التجريب العلمي ، وجعله عنصرا أساسيا في العملية التربوية .²²

وذهب أيضا إلى أن التفكير هو محاولة تتم عن قصد ووعي بهدف الكشف عن أفعالنا، وما يترتب عليها من نتائج²³. وأنه ليس مجرد مرآة تعكس أحوال الواقع الموجود، بل هو عملية مشاركة يتم خلالها إعادة تنظيم وتجديد ظروف الواقع حتى تكون انبساط لتحقيق رغبات، وأهداف الإنسان والسيطرة على البيئة²⁴، يتبين لنا إذن أن التفكير السليم ليس مجرد أفكار مجردة نظرية بل هو انحراف، واندماج التلميذ بأفكاره السليمة في المجتمع وبالتأكيد سوف يحقق أهدافه وطموحه وفق تربية منظمة وجديدة²⁵

وإذا كان جون ديوي يسعى إلى رسم معالم تسير وفقها العملية التربوية، فهذا لا يكون إلا وفق أسس عملية علمية فما هي إذن؟

أسس عملية التعليم عند جون ديوي:

كان من الطبيعي كذلك أن يعنى البراجماتيون بمحاولة رسم معالم للعملية التعليمية بحيث تسير في خطواتها وفقا لخطوات السير في الطريقة العلمية، وقد لا يتسع المقام لتفصيل ذلك، ويكفي أن نشير على الخطوة الأساسية في كل من طريقة التعليم البراجماتية، وطريقة التفكير العلمي:

أولا: أن يجد الطالب نفسه في وضع خبرة حقيقية تنبعث منه مشكلة تكون بمنزلة حافز إلى التفكير، ولن يتم هذا الشرط إلا إذا اتسم العمل الذي يوحى به الوضع بالرتابة أو الاندفاع بالهوى الوقتي، فلا بد أن تؤدي الخبرة المتاحة إلى ميدان جديد لم يألفه الطالب من قبل حتى تنشأ المشاكل التي تشكل الدافع إلى التفكير²⁶.

ثانيا: ومادام التفكير يتخذ من الحوادث والحقائق مادة له، فلا بد أن يستند الإنسان في معالجة ما يواجهه إلى مثل هذه الوقائع والحقائق²⁷.

ثالثا: إن البحث العلمي مهما كانت الوقائع فهي ضرورية له إذ أن هذه الوقائع تثير لنا إقتراحات تتخطى ما هو كائن في الوقت الحاضر، ومن هنا كان لزوم الخيال للباحث العلمي ولزومه كذلك للعملية التربوية فيه نقفز من الوقائع التي أمامنا إلى عوالم جديدة حيث الإختراع والإبتكار.

رابعا: أن الأفكار تضل ناقصة مادامت أفكار، ومن هنا فهي مؤقتة ومن قبيل الإقتراحات والتطبيق وحده هو محك إختبارها، وهو الذي يلبسها لباس الحقيقة ويكسيها كمال المعنى. لذلك كان من الضروري منح المدرسة فرصاً لتجريب الأفكار

واختبار صحتها، كأن تجرّز المدارسُ بالمعامل والورش والمسارح ، لكي تزوّد التلاميذ باتجاهات إيجابية كالتحرّز من التعصّب والانحياز، وتركيز الاهتمام داخل الفصل الدراسي على تحمّل المسؤولية الأخلاقية، فكثير من الناس يعتقدون مبادئ معينة، ثمّ يهربون منها عندما تواجههم مشكلة، والمدرسة أحياناً تسهم في إيجاد مثل هذه العادة السيئة لدى التلاميذ، إذ تقدم لهم مواد دراسية بعيدة عن خبراتهم، وفوق مستوى مداركهم ، والأمر مهم أيضاً في الحياة المدرسية أن نجرب أفكارنا ونفحصها ونلبسها لباس الحقيقة والواقع.²⁸

إن تنمية عادات التفكير بالطريقة التي أسلفنا ذكرها شيء مهم، وضروري بالنسبة للتربية و لكي تقوم بهذه المسؤولية عليها أن تزود التلاميذ بهذه الإتجاهات مثل العقلية المتحررة والإخلاص والمسؤولية .

أهم الأفكار التربوية لجون ديوي يمكننا تلخيصها فيما يلي :

*ربط المدرسة بالمجتمع .

*التربية عملية حياتية، وليست عملية إعداد للمستقل، إي الاهتمام بالموضوعات العملية بصورة عامة.

*العلاقة بين الديمقراطية والتربية.²⁹

من هذا المنطلق يتبين لنا أن جون ديوي كانت له شهرة عالمية في مجال التربية والتعليم وهذا ملاحظناه من خلال أن الكثير من نظريات أقطار العالم سعت إلى تطبيق نظامه التربوي في منهجها المدرسي، لأنه يرى أن المدرسة تعكس مستوى التطور الاجتماعي، وقد أحدثت هذه النظرية تأثيراً دائماً على المدارس الأمريكية.

واقع المدرسة وأفاقها عند جون ديوي:

تتحد الروح الفردية والاجتماعية ، ولا يمكن للمجتمع أن يكون صادقاً مع نفسه إلا إذا كان صادقاً في تسييره للنمو التام لجميع الأفراد الذين يؤلفون ذلك المجتمع.³⁰

لكن السؤال المطروح هنا إذا كانت المدرسة تحتل مكانة كبرى، وراقية بالنسبة لجون ديوي فهل هذا يعني أنها وسيلة للتقدم الاجتماعي ؟ نعم هي وسيلة للتقدم المجتمعات لكن لماذا ؟ لأنها حلقة وصل بين المعلم والطالب هذا من جهة، ومن جهة أخرى التقدم الذي يحرزه التلميذ في نجاحه الدراسي أي القدرة على الكتابة، والقراءة ونمو جسدي وعقلي معا هذا دليل على وجود علاقة بين المدرسة والمجتمع،

ومدى تأثير المدرسة على تقدم المجتمع فهي كما يقول هوراس مان: "حيثما ينمو شيء فإن مؤسسا، أو منشأ واحدا يعادل ألف مصلح أو مجدد".³¹

إذا أردنا أن نفهم أعمال الخشب، والمعدن، والحياسة، والخياطة، والطبع على أنها طرق المعيشة والتعلم، لا على أنها دراسات محددة يجب أن ندرجها ضمن أهميتها الاجتماعية بصفتها أنواعا من العمليات التي يستطيع بها المجتمع أن يسير نفسه وبصفتها وسائل تعود على الطفل ببعض الضرورات الأساسية في حياة المجتمع.³² معنى هذا أن هذه الوسائل تجعل من المدرسة الصورة الحقيقية للصورة المجتمعات الفعالة، عوضا أن تكون في جهة معزولة تجري فيها تعليم الدروس، إذا كان الأمر على هذا النحو فما هو معيار القيمة الصحيحة في المجتمع؟ أن معيار القيمة الحقيقية هو بالنظر إلى نوعية العمل المقدم لا من حيث كمية المعلومات الذي إستوعبها ذلك الشخص.³³

هذا يعني على أن كل مدرسة من المدارس يجب أن تنظم نفسها وفق منهاج وقاعدة اجتماعية تتسم بمبدأ الضبط الذي يساعد على تنمية روح التعاون الاجتماعي، عمل ديوي على جعل كل مدرسة من المدارس تعيش حياة اجتماعية مصغرة، أو حياة اجتماعية في بدايتها فعالة بأنواع مهنها التي تعكس حياة مجتمع أكبر، وتتقدم بروح من الفن والتاريخ والعلم، فعندما تقدم المدرسة كل طفل إلى عضوية المجتمع، وتدرجه داخل مجتمع صغير من هذا النوع فتجعله يتشرب روح الخدمة، وتجهزه بأدوات التوجيه الذاتي الفعال يكون لنا حينذاك أعماق وأحسن ضمان لمجتمع أكبر ذي قيمة وحسن وانسجام.³⁴

يرى ديوي أن المدرسة وجدت من أجل الطفل وليس العكس، ففي كتابه (مدارس المستقبل) نجده ينوه بأفكار رجال التربية من أمثال روسو بقوله "لعل روسو كان أول من أدرك أن عملية التعليم أن هي إلا ضرورة، وإنها جزء من عملية أخرى هي عملية النمو وحفظ الذات، فإذا أردنا أذن أن ندرج كيف تتم العملية التعليمية التربوية بنجاح كامل وجب علينا أن نتجه إلى خبرات الأطفال حيث تكون عملية التعلم ضرورة لا أن نتجه إلى خبرات المدرسة وتجاربها التي هي زخارف إلى حد بعيد، ومسائل شكلية سطحية، بل لعلها عملية فرض لا يرحب بها الأطفال ولا يتقبلونها بقبول حسن".³⁵

فالإصلاح التربوي الذي يركز عليه ديوي هو المتمثل بجعل الطفل محور العملية التربوية وليس المدرسة، وهذا ما أشار إليه في كتابه "المدرسة والمجتمع" بقوله: "نرى التغير المقبل في تربيتنا هو تحول مركز الجاذبية، فهو تغير ثوري أو ثورة ليست غريبة عن تلك التي أحدثها كوبرنيكس³⁶، عند ما تحول المركز الفلكي من الأرض إلى الشمس ففي هذه الحالة أن يصبح الطفل الشمس التي تدور حولها تطبيقات التربية³⁷. على الرغم من تأكيد ديوي لكن هذا لا يعني إغفال دور المدرسة وخبراتها، لأنه يرى أن المدرسة لا هدف لها ولا غرض وعليه فإن النظرة التربوية الناجحة هي بعيدة عن فكرة مشاركتها في الحياة الاجتماعية التي تعمل على تحقيق توازن بين الظروف الداخلية، وما تستوجبه من حاجات الطفل من نشاط ولعب وراحة، وبين الظروف الموضوعية، وما تستوجبه من تنظيم في الإدارة بمواد الدراسة لأن العجز عن تكييف المادة لتلائم حاجات الأفراد وقدراتهم قد يؤدي إلى أن تصبح الخبرة غير تربوية كما يؤدي إلى هذه النتيجة بعينها عجز الفرد عن التكيف نفسه للمادة"³⁸. فالتنسيق بين الظروف الباطنية والموضوعية هو الذي يحقق الغرض أو الهدف من التربية لذا فإن الدور الأساسي للمدرسة هو إحداث توافق بين خبرات الطفل المختلفة وتدريبه على حل المشاكل التي تجابهه.

إن رؤيته للنظام التربوي الجديد الذي تصوره تتمثل في نظريته للمدرسة حيث قدم لها تصورا جديدا أخرجها من تصورهما النمطي، والذي انتهى به إلى اعتبارها هي المجتمع ذاته تتضمن ما يتضمنه من أنشطة وموضوعات، الأمر الذي قادني إلى عرض مميزات التفكير الناجح، وكذا المنهج التربوي المتبع في العملية التربوية والذي انتهى بـ"ديوي" إلى اعتبار المتعلم يتقدم على كل الموضوعات فهو إذن أساس التربية ومركزها.

التوجيه الاجتماعي للتربية:

لعل ذلك الإلحاح الملحوظ لدى البرغماتيين للإيضاح وتوثيق الصلة بين الفلسفة والتربية مظهرا يريدون من خلاله أن يبينوا أنهم كانوا على وعي بوظيفة الفلسفة الاجتماعية وما إختيارهم للتربية كمعمل لاختبار صحة الآراء، والمبادئ الفلسفية إلا تأكيد لقدرة التربية على التغيير، والتحويل في عالم يكاد الفكر فيه يعجز عن ملاحقة ما يحدث من تحول وتغير، وهذا هو فيلسوف التربية البرغماتية يقول: إنَّ التربية ظاهرة طبيعية في الجنس البشري بمقتضاها يصبح المرء وريثاً لما كوّنته

الإنسانية من تراث ثقافي وبالتقليد والمحاكاة تتحقق التربية الاجتماعية بطريقة لا شعورية، وبحكم معيشة الفرد في المجتمع، يتحقق للحضارة الإنسانية الانتقال من جيل إلى آخر، والتربية المقصودة تتطلب دراية بنفسية الطفل من جانب، وحاجات المجتمع من جانب آخر³⁹.

إن فلسفة جون ديوي في التربية تهتم بالجانب الاجتماعي في ارتباطه بالجانب الطبيعي، فالجانب الاجتماعي يمثل الجسر الذي يحول السلوكات الطبيعية ويعطيها البعد الإنساني⁴⁰.

وفي هذا إشارة لأهمية الاتصال في بناء الخبرة وتكوينها، ونقلها من الكبار إلى الناشئين طالما أن هؤلاء الصغار لا حول لهم ولا قوة مما يحدث من تحولات في الحياة، فالواقع يثبت أن "بني الإنسان يولدون قليلي النضج إلى درجة أنهم لو خلوا وأنفسهم بدون توجيه الآخرين، وعونهم ما تمكنوا من الحصول حتى على أيسر الكفايات اللازمة لحياتهم المادية"⁴¹، مما جعله يؤكد على المشاركة الجماعية الحرة وهي ميزة المجتمع الديمقراطي الذي تنشده التربية فهي ضرورية لدوام الحياة الجماعية، وبمثابة الغذاء والتناسل في الحياة الفسيولوجية التقدمية، ولذلك دأب ديوي على وضع التلازم بين التربية والحياة، وتكشف رغبته من خلال هذا التلازم في بناء تصور جديد لطبيعة الحياة⁴².

لقد تعلم جون ديوي من كل الفلسفات التربوية التي اطلع عليها فأعاب على بعضها وثنم بعضها الآخر، وعدل ما أمكن تعديله، وأستطاع أن يرسم معالم فلسفته التربوية الجديدة والتي أقامها على أسس اجتماعية ونفسية وأخلاقية وعلمية، بغية تكوين الفرد الليبرالي والمجتمع الديمقراطي، فربط الفلسفة بالتربية ثم ربط التربية بالحياة العملية ومشكلاتها وتحدياتها. وفي هذا الربط تجلت أفكاره التربوية ومناهجه الإصلاحية التي تعتبر من أبرز نظريات التربية الجديدة، والقائمة على مبدأ الاهتمام بالمتعلم الذي هو أساس كل تربية ناجحة، لكن على الرغم من إسهامات ديوي التي جعلته يرتقي إلى مرتبة الفلاسفة العظماء من خلال إدخاله روحاً جديدة إلى الفلسفة الحديثة عن طريق مناهجه الإصلاحية التربوية وتأكيد على مثل الديمقراطية ودعوته إلى توسيع الأساليب العلمية في الشؤون الإنسانية وفي التربية بصفة خاصة، إلا أن ما قدمه في هذا المجال وإن لقي صدى

كبيراً اليوم إلا أنه واجه الكثير من الرفض والانتقاد، فما هي إذن أهم الاعتراضات التي وجهت لفلسفته التربوية ؟

الإعتراضات التي وجهت لجون ديوي :

إن الكنيسة الكاثوليكية التي كانت تشرف على عدد كبير من المدارس في الولايات المتحدة الأمريكية لم يسلموا بقسم من آراء جون ديوي في التربية والتعليم ، كما أن هذه الكنيسة ترفض من أساس الفلسفة البرغماتية التي يمثلها جون ديوي وتسير على هدى الفلسفة المثالية .

هناك عدد من المربين الأمريكيين وقفوا لجون ديوي بالمرصاد، وعارضوا آراءه التربوية، ومن أشهر هؤلاء وليم سي باكلي الذي كان أحد أعضاء لجنة مونرو وكان باكلي يرى أن عملية التربية هي عملية نقل التراث الأساسي والمحافظة على الجذور الثقافية ، والتمسك بالقيم والمثل الروحية الأساسية على أن لا يحول ذلك كله دون تطور المجتمع وتقدمه.⁴³

ومن الذين عارضوا آراء جون ديوي في مجال التربية والتعليم الدكتور هتجنس رئيس جامعة شيكاغو سابقاً، وعدد آخر الذين يرون أن عملية التربية هي عملية نقل التراث من الجيل القديم إلى الجيل الجديد، وتدريب أبناء الجيل الجديد على التفكير عن طريق الدراسات الأساسية التي ثبتت فائدتها كالفلسفة ، والمنطق والرياضيات والدراسات الإنسانية ويهاجم هتجنس نوع التربية التي يدعو إليها ديوي في كتابه الشهير "التعليم العالي في أمريكا"⁴⁴.

أن المنطلقات التي تعتمد عليها التربية الديوية رغم ما فيها من عيوب التي قد لا تتماشى والطابع العقائدي والثقافي لكثير من المجتمعات، إلا أنه يجب أخذ ما فيها من محاسن التي تفيدنا في حاضرنا ومستقبلنا، والتي ترسمها بصماته التربوية التي لا يمكن إنكارها بأي حال من الأحوال، ولعل ما تركه من مؤلفات تملأ جميع مكتبات العالم خير دليل على مدى مساهمته الكبير في ميدان التربية، بالإضافة إلى طرقة التربوية ورواه العلمية للمدرسة وجميع أنشطتها ففيها ما يمكن أن يفيد منظماتنا التربوية إذا ما أحسننا فهمها واستخدامها ، ولأننا نعيش في عصر التقدم والتكنولوجيا ونشعر بأهمية العلم ونلاحظ مدى اقتحامه لكل مجالات الحياة، هذا ما يجعلنا في حاجة إلى فلسفة تربوية معينة تهدف إلى خلق مجتمع يسير تطورات العصر ويتمسك بهويته وثقافته. ويمكن أن نستفيد مما قدمته الفلسفة البرغماتية

في الميدان التربوي بالأخذ بالدعائم العلمية الأساسية من فلسفة جون ديوي التربوية والتي تركز على دعامتين أساسيتين لهما التأثير الكبير على كل المجتمعات وفي كل مجالات الحياة وهما: الإيمان بالديمقراطية والأسلوب العلمي في التربية.

الخلاصة :

وما يمكن أن نختم به هذه الورقة البحثية أن فلسفة التربية عند جون ديوي أحدث انقلابا جوهريا في حقل التربية في ظل عالم يتغير بسرعة مذهلة ، ويواجه تدفقا معرفيا وتكنولوجيا هائلا الذي أتاح للنظم التعليمية العربية إطارا فلسفيا وتربويا يمكنها من الفكاك من الجبرية المقيتة، ويعيد للعقل الفردي اعتباره وللإرادة الحرة مكانتها . وهذا تستطيع أن تستفيد منظوماتنا التربوية في العالم العربي بما قدمته التربية التقدمية بجعلها مرجعية فلسفية لنظامها التربوي على أن يتم تهذيبها وفق خصوصيات كل بيئة عربية من حيث ثقافتها وطابعها الاجتماعي من جهة، وكذا المتطلبات الاجتماعية والاقتصادية والعلمية الراهنة من جهة أخرى، فتأخذ منها ما يساعد على تطوير المنظومة التربوية في بلادنا بتجاوز الممارسات التقليدية والتوجه إلى الأساليب الجديدة والمتطورة والعلمية كدعامة عصرية لعمليات التدريس مع الحرص على الحفاظ وتعزيز الجوانب، التي تعتبر بمثابة العمود الفقري في البنية الثقافية للشخصية الوطنية، وهذا هو المسعى الطبيعي لكثير من المجتمعات اليوم.

الهوامش :

- 1 - جون ديوي: الديمقراطية والتربية ،ترجمة متى عفراوي وزكرياء ميخائيل، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة، سنة 1946م ص 332.
- 2 - المصدر نفسه ، ص336.
- 3- محمد لبيب النجيجي: مقدمة في فلسفة التربية ، دار النهضة العربية بيروت، سنة 1992م ، ص32.
- 4 - جون ديوي : المبادئ الأخلاقية في التربية، ترجمة عبد الفتاح السيد هلال، مراجعة أحمد فؤاد الأهواني، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، سنة 1966ص، 65 .
- 5- صادق سمعان: الفلسفة والتربية ، محاولة لتحديد ميدان فلسفة التربية ، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة 1962م ، ص 89 .
- 6- جون ديوي: الديمقراطية والتربية ، ص337.

- 7- عبد الله الرشيدان ونعيم جعيني: المدخل إلى التربية والتعليم، دار الشروق للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، سنة 1996م، ص 17
- 8- محمد جديدي: فلسفة الخبرة "جون ديوي نموذجاً، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت لبنان، الطبعة الأولى، سنة 2004م، ص 227.
- 9- جون ديوي: الديمقراطية والتربية، ص 338.
- 10- المصدر نفسه، ص 339
- 11- المصدر نفسه، ص 336.
- 12- جون ديوي: المدرسة والمجتمع، ترجمة أحمد حسن الرحيم، مراجعة محمد ناصر منشورات، دار مكتبة الحياة بيروت لبنان، الطبعة الثانية، سنة 1978م، ص 13 .
- 13- المصدر نفسه الصفحة نفسها
- 14- محمد ناصر: قراءات في الفكر التربوي، وكالة المطبوعات الكويت، الجزء الأول، الطبعة الأولى، سنة 1973م، ص 449 .
- 15- محمد ناصر: قراءات في الفكر التربوي، ص 449 .
- 16- جون ديوي: المدرسة والمجتمع، ص 17 .
- 17- المصدر نفسه الصفحة نفسها
- 18- المصدر نفسه، ص 18 .
- المصدر نفسه الصفحة نفسها
- 20- المصدر نفسه الصفحة نفسها .
- 21- سعيد إسماعيل علي: فلسفات تربوية معاصرة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، سنة 1995م، ص 94
- 22- المرجع نفسه، ص 95.
- 23- المرجع نفسه، ص 95
- 24- المرجع نفسه، ص 96
- 25- المرجع نفسه الصفحة نفسها
- 26- المرجع نفسه، ص 99.
- 27- المرجع نفسه، ص 100
- 28- المرجع نفسه الصفحة نفسها
- 29- جون ديوي: المدرسة والمجتمع، ص 20 .
- 30- المصدر نفسه، ص 31 .
- 31- المصدر نفسه الصفحة نفسها
- 32- المصدر نفسه، ص 37.
- 33- جون ديوي: المدرسة والديمقراطية، ص 39.
- 34- جون ديوي: المدرسة والمجتمع، ص 50 .

- 35- جون ديوي: مدارس المستقبل، ترجمة عبد الفتاح المنياوي، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، سنة 1962م ، ص56
- 36- كوبرنيكس: ويلفظ بالبولندية ميكواي كوبرنيك، راهباً وعالمًا رياضياتياً وفيلسوفاً فلكياً وقانونياً وطبيباً وإدارياً ودبلوماسياً وجندياً بولندياً كان أحد أعظم علماء عصره ، يعتبر أول من صاغ نظرية مركزية الشمس، وكون الأرض جرماً يدور في فلكها في كتابه "حول دوران الأجرام السماوية" ، وهو مطور نظرية دوران الأرض، ويعتبر مؤسس علم الفلك الحديث، من مواليد 1473-1543م
- 37- جون ديوي: المدرسة والمجتمع ، ص128.
- 38- جون ديوي: الخبرة والتربية ، ترجمة محمد رفعت رمضان ونجيب اسكندر ، مكتبة الانجلو المصرية مصر، سنة 1983م ، ص41.
- 39- سعيد إسماعيل علي : فلسفات تربوية معاصرة ، ص100.
- 40- جون ديوي: الديمقراطية والتربية، ص 4
- 41- جون ديوي: الديمقراطية والتربية، ص 4
- 42- جون ديوي: الخبرة والتربية، ص 20.
- 43- جون ديوي: المدرسة والمجتمع، ص21.
- 44- المصدر نفسه الصفحة نفسها .